مريم سيف الدّين

هكذا فرض «حزب الله» رؤيته على المرأة:
الأداة الأولى لإنتاج المقاتلين

أمم
للتوثيق والأبحاث
Documentation & Research

مريم سيف الدّين

هكذا فرض «حزب الله» رؤيته على المرأة: الأداة الأولى لإنتاج المقاتلين

هدف الدراسة

لطالما تبادَل الكثير من الأشخاص الذين نشأوا في البيئة التي هيمَن عليه «حزب الله» الروايات والأحاديث والتجارب الشخصية حول التغيّرات التي أدخلها الحزب على المجتمع الشيعي في لبنان خلال أربعة عقود. ولطالما تشاركت نساء شيعيات الحديث عن الضغوط التي تُفرض عليهن يوميًّا للالتزام بنمَط لباس وعيش محدَّدين وعن مخاطر محاولة مقاومة الدور المفروض عليهن. والكثير منهنّ ما زلن يخشيْن من رواية آراءهن في العلن. ولطالما حاول أشخاص تفسير أو فهم السلوكيات التي صارت جماعية ومتناسخة وباتت تستدعي في كثير من الأحيان أحكاماً قاسية تجاه أصحابها من دون فهْم خلفياتهم والعوامل التي تدفع بهم إلى سلوكيات محدَّدة. وعلى الرغم من كَثرة ما تنقله الذاكرة الجمعية للنساء شفهيًّا إلّا أن التوثيق والطرح المكتوب لكل هذه الروايات والتساؤلات يظلّ قليلًا ومن الصعب الوصول إليه. إذ لا يتوفر بسهولة أمام العامة، على العكس من الرواية التي تناقضه.

لذا كان لا بدَّ من توثيق وجَمع ولو بعض من ذاكرة وقصص تُظهر كيف سيطر «حزب الله» على أجساد قسم كبير من النساء الشيعيّات وغيّر العادات والتقاليد ونمَط العيش والسلوكيات في الأماكن التي هيمَن عليها. كذلك توضح كيف تمكّن الحزب العقائدي من الدخول إلى مختلف تفاصيل حياتهن، من الجوارب التي يلبسنها وصولاً إلى علاقتهن بالمجتمع الأوسع.

وتهدف هذه الدراسة إلى إيضاح كيف أدَّت هيمنة «حزب الله» على جسد النساء الشيعيّات من خلال فرض اللباس وكذلك تغيير العادات والتقاليد حيث استطاع إنتاج سلوك متناسخ لدى الكثير منهنّ.

وصولاً لفهم المنطلقات التي تدفع بأمهات الضحايا من عناصر «حزب الله» للتفاخر بمقتل أبنائهن، والعوامل التي تؤدّي إلى إنتاج ردود فعل متطابقة تذهب حدّ المغالاة في مسألة تقديم الأضاحي ومواساة الأئمة، ومحاولة كبْت المشاعر الإنسانية الطبيعية والخجَل من إظهارها. وبالتالي تقبُّل الخسارات الكبيرة والرضى بها. وهو ما ينظر إليه قسم كبير من المجتمع اللبناني باستغراب من دون فهْم خلفيّاته.

المقدمة

وضع «حزب الله» تصوُّراً متكاملًا للمجتمع بأكمله. حدَّد دوراً لكل فرد فيه ليكون الكلّ بخدمة المشروع الذي وضعه مؤسِّس الجمهورية الإسلامية في إيران، روح الله الخميني، وكل مَن يخلفه كـ«وليّ فقيه». حدَّد المشروع الذي بايَعه «حزب الله» دور المرأة ورسَم لها قالبًا محدَّداً فارضاً عليها كيف يجب أن تفكّر وتتصرف في أبسط تفاصيل حياتها. فعمل على التوجُّه للرجال لإقناعهم بفرض هذا الدور على النساء، كما عمل على التوجّه إلى النساء لإقناعهن بالخضوع لهذا الدور وبفرضه على غيرهن. فكان الحزب يخاطب الرجل كيف عليه أن يتصرف مع النساء وما عليه ألّا يرضى به، وعن نموذج المرأة الصالحة.

وكذلك كانت تُخصَّص عِظات تتوجّه إلى النساء لإخبارهن بالدور المفروض عليهن والمكلَّفات به شرعاً.

بالتوازي جرى العمل عبر الإعلام وعلى المنابر للترويج لصورة المرأة المثال أو النموذج الذي على النساء الأخريات الاقتداء به. فكانت تُقدَّم أم القتيل الصابرة كقدوة للنساء الأخريات، واللواتي عليهن بدورهن أن يثبتن رغبتهن بتقديم جميع أبنائهن قرباناً وأن تتفاخرن بذلك كونه يشكّل مواساة لأهل البيت.[1]

كما في الإعلام وعلى المنابر، كذلك على الأرض. راح «حزب الله» يحاول رويداً رويداً، وعبر الترهيب والترغيب، التسلُّل إلى كامل تفاصيل حياة النساء تمهيداً للإطباق عليهن.

وإن كان «حزب الله» لم يتمكَّن إلى الآن من فرض سلوكيات موحّدة على جميع النساء الشيعيّات، بفعل طبيعة المجتمع اللبناني المتعدّد والظروف القائمة وتنوّع خلفيات وانتماءات النساء، غير أنه تمكّن من فرض رؤيته على جزء كبير من هؤلاء، وخصوصاً أمهات وزوجات وأخوات وأقرباء مقاتليه.

ونجح الحزب مع الوقت في تغيير نمط حياة وسلوكيات النساء من خلال الكثير من التغييرات التي أدخلها على المجتمع، لتخرج صورة المرأة كثكلى أو كأرملة مُكابرة في رثاء المقاتلين كنتيجة لهذا الدور. حيث تسعى الأم أو الزوجة للتهرُّب من مشاعرها خشية رسوبها في نظَر المجتمع الذي حدَّد لها دورها كإمرأة مهمّتها أن تكون زوجة صالحة وأمًّا تُعدُّ المقاتلين وتدفع بأبنائها نحو الشهادة وتقدِّمهم باندفاع على مذبح العقيدة. فتتباهى على الملأ بمقتل ابنها أو أطفالها وتحاول مواجهة الكاميرات أحياناً بضحكة مفتعلة تُخفي حجم الخسارة. بل وأن تتعاطى معها كمكسب كي تتشجّع الأخريات على تقديم أبنائهن والتطبيع مع الخسارات والتسليم بها مهما عظُمت.

أما النساء غير الملتزمات بهذه الرؤية فبِتن عُرضة للضغط

(١) أهل البيت: يقصد بهم في الأدبيات والكتب الشيعيّة أسرة النبي محمد وتحديدًا ابنته فاطمة وزوجها علي وذرّيتهما

الهيئات النسائية في حزب الله في إحدى المناسبات الحزبية

والتمييز والعقاب بأشكال مختلفة. فإما أن يرضخن وإما يُعانين.

تقول الكاتبة والصحفية بادية فحص في مقابلة مع «أمم» في إطار هذا البحث إن تغيُّر نمط عيش وسلوكيات المرأة الشيعيّة بعد سيطرة «حزب الله»، والتدخّل في العقيدة والسياسة كان لدى النساء أشدَّ منه عند الرجال. «لأن النساء هنَّ اللواتي يكرّسن المظهر الديني والأيديولوجي أكثر من الرجال، ولأنهن يتبنّينه أكثر، لدى النساء إخلاص أكبر وأصلب من الرجال، والواجبات المطلوبة من المرأة والفاتورة التي تقدّمها لإثبات تديُّنها أكبر من تلك التي لدى الرجل». وتشرح فحص أن إثبات تديُّن مجتمع وهويته يتمّان من خلال مظهر المرأة وسلوكها، «هي هويّته، لذا تركّز أحزاب الإسلام السياسي[2] على المرأة».[3]

الخطابات مدخل إلى السيطرة

منذ نشأته، أفرد «حزب الله» مساحات واسعة للحديث عن المرأة ودورها. ولعب نائب الأمين العام للحزب، لأكثر من ثلاثين عاماً، الأمين العام الحالي نعيم قاسم، دوراً كبيراً على مرّ السنوات في محاولة فرض رؤية «حزب الله» للمرأة. وعمل باستمرار، مع غيره من رجال الدين، على التوجّه للرجال والنساء لفرض هذا الدور. ولقاسم الكثير من الكتابات والمحاضرات والمواقف في هذا الإطار.

(٢) الإسلام السّياسي: مصطلح يُقصد به الحركات التي تؤمن بالإسلام نظاماً سياسيًّا للحكم.

(٣) انظر/ي: نعيم قاسم، حزب الله المنهج والتجربة، دار المحجة البيضاء، ٢٠٠٩.

كذلك ساهمت المؤسسات التربوية التي أسّسها قاسم في أدْلجة الأطفال ذكورا وإناثا. الأمين العام الحالي، كان ولا يزال المسؤول عن مدارس «حزب الله» الإسلامية. فهو أستاذ في التعليم الديني ومن الأوائل الذين وضعوا أُسسه في لبنان. وينتمي الشيخ بالأساس إلى «حزب الدعوة» الإسلامية الذي تأسَّس في العراق في العام ١٩٥٧ والذي هدف إلى تغيير المفاهيم والسلوكيات والأعراف على أساس التعاليم الإسلامية، وإحلال القوانين الشرعية الإسلامية محلّ القوانين الوضعية. ويمكن تلخيص رؤية قاسم لدور النساء الخاضعة لفتاوى الخميني، بأن على المرأة أن تكون زوجةً صالحة، وفْق مفهومه للصلاح، وأمًّا تُربي المجاهدين.

في كتابه «حزب الله المنهج والتجربة» يقول قاسم: «إن للمرأة النصيب الكبير في التربية والتعبئة الجهادية، وفي مواقعها المختلفة كأمٍّ وزوجة وأخت وابنة، فكم من أمٍّ ربّت ولدها على الإيمان عندما كان صغيراً، ودفعته إلى المعركة عندما أصبح كبيراً، وكم من زوجة ساندت زوجها وتحمّلت معه تضحيات الجهاد، إنها التربية التي ترتقي بالمرأة إلى المستويات العظيمة من العطاء والتضحية».

يحصر «حزب الله» دور المرأة داخل الأسرة. في الكتاب نفسه يقول قاسم عن رغبة النساء بالقتال «لمسنا هذا الأمر من عائلات المجاهدين والشهداء. وقد بلغت المطالبة ببعضهن بضرورة الإفساح في المجال لهن لحمل السلاح والقتال في ساحة المعركة. لكن التكليف الشرعي لا يطالهن في واجب القتال مع توفُّر العدد الكافي من الرجال وعدم وجود الضرورة المتوقفة على مشاركتهن. فدورهن في الخطوط الخلفية، في المَدد والتعبئة، وهذا ينسجم مع القدرة الجسدية للمرأة ومع توزيع الأدوار بينها وبين الرجل، وهذا لا يُنقص من أجرِها شيئًا عند الله تعالى، لأن الأجر مرتبط بالتكليف، وهي تقوم به من موقعها».

إذاً فإن هذا الدور الملقى على عاتق المرأة والمتمثِّل بتنشئة المجاهدين ودفع الرجال إلى المعركة، يتطلب السيطرة على النساء والعمل على تحضيرهن للقيام به. وهو ما جعل الحزب يبحث عن آلية تنظيمية للوصول إلى النساء والسيطرة على مختلف جوانب حياتهن.

امرأة جنوبية تحمل سلاحًا خلال الانتخابات في جنوب لبنان

الهيئات النسائية قبضة على النساء

للسيطرة على النساء كان لا بدّ من إنشاء جهاز نسائي يعمل تحت إمرة القيادة للتّواصل مع النّساء واستقطابهن والإمساك بهن. فشكّل الهيئات النسائية، وصارت جزءاً تنظيميًّاً من عمل «حزب الله»، ولعبت دوراً محورياً في خدمة الحزب منذ نشأته، أي قبل الإعلان عنها رسمياً. مهمّة هذه الهيئات هي العمل على استقطاب النساء وترسيخ دور المرأة في المجتمع وفْق رؤية «حزب الله» العقائدية، وتحفيز النساء على الانخراط في العمل الاجتماعي والسياسي ضمن بيئة الحزب ووفْق الأُطر المحدَّدة، والهدف تشكيل قوة نسائية ضاغطة على النساء لفرض نمط حياة وسلوكيات خاضعة للعقيدة الخمينية، وهو ما نجح الحزب في تحقيقه على نطاق واسع.

تعمل الهيئات النسائية في الأحياء على استقطاب النساء وحثّهن على المشاركة في الأنشطة الحزبية - الدينية وصولاً لأدْلجتهن وإقناعهن بالدور الذي يريده لهنّ الولي الفقيه.[٤] وعادة ما تحاول مسؤولة الهيئات في الحيّ

(٤) الولي الفقيه: وفق فقه الخميني هو من ينوب عن الإمام المهدي المنتظر عند الشيعة في قيادة الأمة وإقامة حكم الله على الأرض.

الهيئات النسائية في حزب الله، موقع بيروت تايم

الحرص على متابعة التزام كلّ سيّدة باللباس «الشّرعي» وبحضور المناسبات التي تُقيمها، والتي تحمل الكثير من الوَعظ والتوجيهات.

وعادة ما يُرسل الحزب نساء الهيئات في العديد من المهام التي لا يمكن للرجال القيام بها. لعل أبرز هذه المهام إبلاغ الأمّهات بمصرع أبنائهن.

في الجامعات كذلك، تعمل الهيئات النسائية على استقطاب الشابات وحثهن على حضور المناسبات الدينية التي يجري إحياؤها تمهيداً لاستقطابهن. كذلك تعمل على إقناعهن بمعايير «اللباس الشرعي» وارتداء الحجاب. ويسعى «حزب الله» عبر تلك الهيئات للإطباق على اللواتي لم تتمّ أدلجتهن في أُسرهنّ أو في مؤسّساته التربوية.

إذًا، يلحق «حزب الله» بالنساء إلى الصرح الأكاديمي الذي يشكّل مكاناً للاختلاط والتعارف واللقاء مع الآخرين، وهناك يسعى لضبط الأمور وفرض سيطرته.

هناك أيضًا يرفع الحزب شعارات دينية تحثّ النساء على الالتزام بالحجاب ويعمل على استقطابهن في العمل الحزبي. وفي حَرم الجامعات يحرص دوماً على إحياء مناسبات دينية يفصل فيها بين الجنسين، ويعمل على إلغاء العديد من المحاضرات العلمية لصالح إقامة مناسباته التي تتعمّد اختيار توقيت الدوام الدراسي.

في إطار إعداد هذا البحث أخبرتني إحدى النساء عن تجربة بسيطة لها مع الهيئات النسائية داخل حَرم الجامعة. هذه تجربة تعكس أسلوب عمل هذه الهيئات وكيفية دفعها النساء باتجاه الالتزام بلباس أكثر صرامة. تقول السيّدة، التي تفضّل عدم الكشف عن اسمها خشية الضغوط التي قد تتعرَّض لها، إنه في العام ٢٠١٣ عندما كانت طالبة في الجامعة، أبلغت إحدى النساء من الهيئات النسائية الطالبات عن التحضير للقاء مع أمين عام «حزب الله» حسن نصرالله، وطلبت من اللواتي يرغبن بحضور اللقاء تسجيل أسمائهن، «اقتربتُ منها وقلت بأنّي أرغب بالذّهاب إلى اللقاء، وعلى الرغم من أن اللقاء كان عبر شاشة أجابت بأنه لا يمكنني الذهاب معهنّ بهذا الشكل، سألتها أيّ شكل؟ قالت يجب أن لا يكون لباسُك ضيّقاً ولا يتعدّى الرّكبة، بل يجب أن يتعدّاها وعليك ألّا تضعي الحُمرة والكِحلة. عندها قررت عدم الذهاب»، تضيف السيدة. وتتابع «كانت تنظر إليّ دوماً بنظرات تعبّر عن انزعاجها من حجابي. عندما خلعت الحجاب قالت لي "إي ما حجابك ما كان ظابط هلّأ فهمت"...». تُشير هذه الحادثة البسيطة إلى نوع من الابتزاز يمارَس ضد الشابات لحثّهن على الالتزام بمعايير اللباس التي يفرضها «حزب الله» واستبعاده مَن لا تلتزم بها وإشعارها بأنها منبوذة.

الهيئات النسائية، مسؤولة بإمرة مسؤول

تقول مسؤولة وحدة الهيئات النسائية في «حزب الله»، عفاف الحكيم، في مقابلة لها مع موقع «العهد» الإخباري التابع لـ«حزب الله»، إنه بعد اغتيال الأمين العام الأسبق السيّد عباس الموسوي في العام ١٩٩٢ تواصَل الحزب معها لترتيب العمل النسائي (والذي بدأ منذ نشأة الحزب) ووَضْع هيكليّة تنظيميّة لـ«الهيئات النسائيّة في حزب الله». لكن الإعلان رسميًّا عنها لم يتمّ حتى العام ٢٠٠٣. حينها جرى تعيين الحكيم رسميًّا مسؤولة للوحدة. وتضيف: أنه خلال تلك الفترة كان لها جلسة مطوّلة مع الأمين العام حسن نصر الله لتعريفهنّ بكافة جوانب العمل المطلوب. ووضعت الخطة الأساسيّة للهيئات بإشرافه، وانطلق العمل بالهيكليّة مباشرة على صعيد منطقة بيروت، وبعد ذلك بعام تقريباً توزّع العمل على المناطق الأخرى فأصبح لكل منطقة مسؤولة، (وهي في الوقت نفسه معاونة لمسؤول المنطقة)، وفق الحكيم. من ثم جرى تقسيم كل منطقة إلى عدد من القطاعات ليصبح في كل بلدة أو قرية «رابطة»، وفي كل حيّ «مسؤولة شعبة». وفي كل منطقة هناك حوالى ١٠٠٠ إمرأة من الهيئات بين عاملة ومتطوعة ومتعاقِدة.

إذًا، بات في كل حيّ «مسؤولة شعبة» تعمل مباشرة تحت إمرة مسؤول الشعبة. تساعده وتمدّه بالمعلومات ويفرض عبرها سلطته على النساء.

عفاف الحكيم إحدى المؤسسات للهيئات النسائية والمسؤولة المركزية للهيئات النسائية، موقع العهد الإخباري

وعـدّدت الحكيـم أهـداف وحـدة «الهيئـات النسـائية»، التـي تتماهـى بـكل تفاصيلها مـع أهـداف «حـزب اللـه» علـى كافـة الصّعـد الثقافيّـة والاجتماعيّـة والإعلاميّـة، ومنهـا:

- تحصيـن المجتمـع النسـائي وجعلـه مجتمعًـا داعمًـا للمقاومة فـي وجـه المؤامـرات التـي تُحـاك ضـد «حـزب الله».

- التواصـل مـع عوائـل الشـهداء والمقاوميـن، باعتبارهـا صاحبـة الفضـل الأول فـي نشـأة وتربيـة أبنائهـا واندفاعهـم الصـادق.

وبحسـب الحكيـم، كان لـ«الهيئـات النسـائية» دور هـام فـي تشـكيل الوعـي لـدى عامـة النسـاء تجـاه المقاومـة ومواجهـة العـدو الصهيونـي، وذلـك عبـر إقامـة الـدورات والمسـابقات الثقافيّـة بمسـتويات مختلفـة وتشـكيل لجـان اجتماعيّـة مـن محـو الأميّـة إلـى إسـعافات أوليّـة.

بالإضافـة إلـى تشـكيل لجنـة المـؤازرة (وهـي أول لجنـة تُعنـى بعوائـل الشـهداء والجرحـى)، التـي تتحـرك أسـبوعيًّا برعايـة زوجـات العلمـاء والمسـؤولين والفاعليّـات لزيـارة هـذه العوائـل.

نتيجـة لذلـك أصبحـت المـرأة الشـيعيّة، بشـكل عـام، أكثـر انغماسـاً ومشـاركة فـي الفعاليـات الدينيـة والمناسـبات السياسـية كمتلقّيـة وجمهـور لا كفاعـل. فعلـى الرغـم مـن توسّـعها وضمّهـا آلاف النسـاء، غيـر أن عمـل الهيئـات ظـلّ خاضعًـا للتراتبيـة الحزبيـة و«التكليـف الشـرعي»[٥] الـذي يجعـل مـن النسـاء ملحقـات لا مشـارِكات فـي صنـع القـرارات.

(٥) التكليف الشرعي: يشير إلى الواجبات المفروضة على الفرد باسم الله وبحكم الشّريعة.

وصحيـح أن الهيئـات النسـائية تُرسـل وفـوداً لحضـور التشـييع ومواسـاة النسـاء المفجوعـات، لكـن الأهـم أنهـنّ يحضـرن مـن أجـل توجيـه النسـاء والحـرص علـى أن يخرجـن بالصـورة المطلوبـة منهـنّ؛ صـورة الأمهـات الراضيـات بالخسـارة والمسـتعدات لتقديـم المزيـد.

المرأة في السياسة

نمـا «حـزب اللـه» فـي وقـت كانـت فيـه المـرأة قـد بـدأت بالانخـراط بفعاليـة فـي العمـل السّياسـي. وفـي هـذا الإطـار يمكـن مراجعـة البحـث الـذّي أعدّتـه «أمـم» بعنـوان «المـرأة الشّـيعيّة فـي لبنـان خصوصيّـة الهويّـة والكّفـاح المسـتمر». فـي مقابلـة أجرتهـا مـع «أمـم» فـي إطـار هـذا البحـث، تتذكّـر الباحثـة منـى فيّـاض أنّ جيلهـا «كان جيـل سـيّدات شـيعيّات حيويّـات لديهـنّ حريّـات، انخـرط عـدد كبيـر منهـنّ فـي الأحـزاب وتحديـداً الحـزب الشـيوعي، والـذي كان يقـدّم مِنحـاً للدراسـة فـي الخـارج». هـذه المِنـح وسـفَر الطـلاّب/ات إلـى الخـارج ومـن ثـم عودتهـم/ن سـاهمت فـي انفتـاح المجتمـع أكثـر.

ولا مجـال للمقارنـة بيـن الـدور الـذي لعبتـه النسـاء فـي الحزب الشـيوعي اللبنانـي، والـذي تراجـع نفـوذه بفعل سـيطرة «حزب اللـه»، مـع الـدّور الـذي تلعبـه النسـاء فـي «حـزب اللـه» ولا فـي الهيكليـة بيـن الحزبيـن. والحـزب الشـيوعي كان أمينـه العـام نقـولا الشـاوي ومنـذ سـبعينات القـرن الماضـي، وفـي مقابلـة مـع جريـدة «السـفير»، يدعـو للمسـاواة بيـن الرجـال والنسـاء علـى كافـة الصعـد وفـي قوانيـن الأحـوال الشـخصية التـي تفـرض وصايـة علـى النسـاء.[٦] بينمـا يُحـارب «حـزب اللـه»، بـكل مـا أوتـي مـن قـدرة وبلسـان أمنائـه العامين، أي محاولـة لتقليـص التمييـز وحتـى تجريـم العنـف ضـد النسـاء.

وكانـت النسـاء المنتميـات إلـى الحـزب الشـيوعي متحـرّرات، وبـرزت العديـد منهـن كباحثـات ومفكّـرات، كمـا بـرزت نسـاء شـيوعيات قاومـن إسـرائيل وصِـرن رمـزاً لمقاومتهـا. وتقدّمـت أخريـات فـي الجسـم التنظيمـي للحـزب ووصلـت مـاري الدبـس إلـى منصـب نائبـة الرئيـس. ويجـري تكريـم نسـاء مـن الحـزب الشـيوعي فـي احتفـالات تنظّمهـا قيادتـه وهـو مـا لا نجـده فـي «حـزب اللـه» الـذي يقـول علنـاً وعلـى لسـان امـرأة، وكانـت

(٦) انظر/ي: أرشيف «السفير» - العدد ٣٦٧، تاريخ ٣ نيسان ١٩٧٥.

عضواً في الهيئة الوطنية لشؤون المرأة، ريما فخري، بأنه يرفض ترشيح نساء للانتخابات النيابية. كما ويُعلن، على لسان أمينه العام السابق حسن نصرالله، رفض توزيرهنّ. والسبب خشية تقصيرهن في المهام المنزليّة والزوجية. حيث قال نصرالله في إحدى المقابلات مع الإعلامي سامي كليب: «تصوّر، لديك أخت وتريد أن تعمل (أي أن تعمل نائبة)...»... فما كان من كليب إلّا أن سارَعه بالردّ: «لا، أنا سماحة السيد أتمنى أن تصبح أختي نائباً ووزيراً».[٧]

وإن كان الخلاف الجذري في المبادئ يحُكم المقارنة بين «حزب الله» والحزب الشيوعي ونظرة الاثنين إلى النساء والاختلاف الجذري أيضاً في نمط حياة النساء المنتميات إلى الحزبين، غير أن فرقاً كبيراً يظهر أيضاً بين «حزب الله» و«حركة أمل» على صعيد مشاركة المرأة في العمل السياسي وحضورها في الحزب.

تبدو «حركة أمل» أكثر تقدّمًا بكثير من «حزب الله» في هذا المجال، على الرغم من كونها حركة انطلقت من نفس المجتمع الذي توسَّع فيه «حزب الله» وانتشر، وقد أسّسها رجل دين معمّم هو السيّد موسى الصدر.

فالحركة لا تضَع موانع أمام دخول النساء إلى الحكومة أو البرلمان. وكان رئيسها، رئيس مجلس النواب نبيه بري، أول من سمّى امرأة شيعية لتولّي منصب وزيرة في أول مرة تمثَّل فيها نساء في الحكومة اللبنانية. فدخلت وفاء الضيقة حمزة، غير المحجَّبة، مع ليلى الصلح حمادة إلى مجلس الوزراء اللبناني في أول مرة تشهد فيها حكومة لبنانية توزير نساء، في العام ٢٠٠٤.

وبعد احتكار الحركة، مع «حزب الله»، التمثيل الشيعي في البرلمان، كسرت تغييب العنصر النسائي الشيعي من البرلمان والحكومة. فرشَّح نبيه بري عناية عز الدين للانتخابات النيابية في العام ٢٠١٨ بعدما كان قد عيّنها وزيرة في العام ٢٠١٦. منذ ذلك الحين صارت عز الدين النائبة الشيعيّة الوحيدة في البرلمان اللبناني.

واليوم سمّى بري تمارا الزين، غير المحجّبة، لتكون وزيرة للبيئة، بعد أن كان قد فرض تعيينها في منصب أمينة عامة للمجلس الوطني للبحوث العلمية.

(٧) انظر/ي مقابلة سامي كليب مع حسن نصرالله عبر «الميادين» بتاريخ ٤ كانون الثاني ٢٠١٨.

في هذا الإطار، تفيد الباحثة عزة شرارة بيضون «أمم»، أنه وخلال إعدادها بحثاً عمن «منظمة الآلاء النسائية»، التابعة لـ «حزب الله»، سألت إحداهنّ عن رأيها حول استبعاد النّساء من العمل السياسي وعدم ترشيح أية امرأة منخرطة في «حزب الله» في الانتخابات النيابية. وتقول الباحثة التي عملت طويلاً على القضايا الجندرية، إن الشابة أكّدت التزامها برأي «السيّد» (حسن نصرالله) الذي يرغب في إبقاء النساء خارج «وسخ السياسة».

التنشئة في المدراس

لا يُخفى أن «حزب الله» يسعى إلى تنشئة الأفراد، حتى منذ ولادتهم، على العقيدة الخمينية والولاء للوليّ الفقيه. وأنشأ مدارس كي يؤدْلج الأطفال في أصغر سنّ ممكنة. هذه المؤسّسات التي تفرض الفصل بين الجنسين تحرص على تخصيص تعليم يفرض دوراً محدَّداً لكلّ منهما. وتحرص على إقامة حفلات التكليف للطفلات حتى قبل أن يبلغن التاسعة من عمرهن.

وتحتفظ العديد من الفتيات بصورة مع نعيم قاسم خلال حفلات تكليفهنّ. تقول إحدى هؤلاء خلال مقابلتها في إطار هذا البحث، إنّه تمّ تحجيبها في سنّ الثمانية أعوام والثمانية أشهر. أهداها قاسم يومها هدايا أرسلها نصرالله لـ«المكلّفات» وهي عبارة عن قرآن وكتاب «مفاتيح الجنان»[٨] وثوب صلاة. تقول الصبيّة التي تفضّل عدم ذكر اسمها، بأن ارتداء الحجاب حصل بالترهيب وبتهديدها بالدّخول إلى النار. تتذكّر سيدة أخرى درست في مدارس المصطفى[٩] أنّ المدرسة أجبرتهن على مشاهدة فيلم عن عذاب القبر. وتقول إنّ إحدى أترابها شعرت بالرّعب وحاولت الخروج من القاعة لكنّ الأساتذة أجبروها على البقاء والمشاهدة رغم أنها فقدَت أعصابها.

تضيف الصبيّة الأولى أنه في مدارس المصطفى وفي صفّها لم تكن الفتيات مفصولات عن الفتيان، لكنّ كان يُمنع عليهنّ التعاطي مع الفتيان و«كان يُعدُّ ذلك عاراً». وتروي

(٨) مفاتيح الجنان: يعتبر من أهمّ الكتب لدى الشّيعة الإثني عشرية، ويحتوي أهم الأدعية لديهم مثل: دعاء كميل، دعاء الصباح للإمام علي بن أبي طالب، وأدعية التوسّل والمناجاة لعلي زين العابدين ابن الحسين.

(٩) مدارس المصطفى: سلسلة مدارس تتبع لجمعية التعليم الديني الإسلامي، والتي ساهم نعيم قاسم في تأسيسها عام ١٩٧٧، والتي تهتم بتعليم الدِّين الإسلامي في المدارس الرَّسمية والخاصة.

الشيخ حسين زين الدين يكرم طالبات في مدارس المهدي، موقع المنار

«عندما كنت في صف السادس ابتدائي شاهدوني برفقة زميلي في الصف فاعتقدوا أنّنا نحب بعضنا. أدخلونا لدى المدير العام وكانوا يريدون إخبار أهلنا بأننا نحبّ بعضنا، لكنّنا كنا مجرّد رفاق. في مرّات أخرى لم يعجبهم أني أرتدي البالورين من دون جوارب، استدعوا أهلي، فضربني والدي لهذا السّبب. كما منعونا من ارتداء المنديل وفرضوا علينا إما الحجاب أو الايشارب كي لا تظهر رقبتنا».

كيف غيّر «حزب الله» مظاهر وسلوكيات النساء؟

بعد إعلان الثورة الإسلامية في إيران في العام ١٩٧٩ وبدء تصديرها إلى لبنان، ومع تمدّد «حزب الله»، بدأت سلوكيات النساء الشيعيّات في لبنان بالتغيّر، وهو ما برز عبر اللباس. يكفي النّظر إلى صورة للنساء الجنوبيات خلال التحرير في العام ٢٠٠٠ وكيف كنّ يحتفلن في ذلك اليوم لإدراك حجم التغيير الذي أحدثه «حزب الله» في المجتمع خلال ربع قرن فقط. تغيير شمل اللباس والعادات والتقاليد قي تلك القرى ودخَل في أبسط تفاصيل الحياة اليومية.

ليس من السهل الحصول على مراجع توثّق هذا التحوّل. خلال مقابلة «أمم» مع كلّ من منى فياض وبادية فحص تحيلان ذلك إلى الواقع المفروض على الأرض والذي يجعلها مهمة شاقّة. تقول فحص إن السبب كان الخوف من التوثيق نتيجة ما تعرّض له كتّاب (حيث تعرّض كتّاب ومفكّرين وصحافيين وباحثين لاغتيالات واعتداءات اتُّهم «حزب الله» بارتكابها، أبرزهم المفكّرَين حسين مروة[١٠] و(مهدي عامل) حسن حمدان.[١١]

بدورها تقول فياض إنّ الأمر يتطلّب بحثاً ميدانيًّا وإجراء مقابلات، وهو ما يصعُب القيام به في ظلِّ الواقع على الأرض. وتؤكّد الباحثة منى فياض، التي وُلدت عام ١٩٥٠ في جنوب لبنان، إن تغيّراً كبيراً حصل في نمَط عيش وسلوكيات النّساء في المجتمع الشيعي بعد سيطرة «حزب الله» عليه. وتلفت إلى أنّه لا يمكن الحديث عن نساء الجنوب بالمُجمل، إذ تتفاوت الخلفيات. «فهناك نساء قريبات من «حزب الله» وأخريات منظّمات في الحزب، ولكل منهنّ سيكولوجيا وردود فعل وثقافة معيّنة. وهناك نساء تأثّرن بمن حولهن، وهناك المعترضات داخل البيئة، والمعترضات من خارج البيئة. الأخيرات يسهل عليهن الاستمرار في عيش حياتهن على الرغم من أن الكثيرات منهنّ تأثّرن أيضاً بالحزب»، وفق فياض.

بناءً على ما ذُكر، فإنّ طبيعة وحجم الضغوطات التي تتعرّض لها النساء تختلف باختلاف العديد من العوامل. وهو ما سمح بالتّفاوت في قدرة «حزب الله» على التأثير على النساء، وتمكّن نساء دون سواهن من مقاومة محاولات الحزب العقائدي فرض إرادته على جميع الشيعيّات.

تشير فياض إلى أنه وبشكل عام، قبل وجود «حزب الله» كانت هناك عادات طبيعية وثقافة متسامحة مع المرأة في جنوب لبنان. وكانت المرأة قد بدأت بالخروج واستلام الوظائف، كما كانت قد بدأت بخلع الحجاب التقليدي.

ففي الجنوب كان الحجاب الذي يوضع هو الحجاب التقليدي (اليشارب) مع تسامح وعلاقة طبيعية بين الجنسين، وكانا يختلطان ويدبُكان معاً في الأعراس والمناسبات الفرِحة، وفق الباحثة. وتضيف: إنه إلى جانب ذلك كانت هناك أماكن دينيّة. «الآن باتت الأمور أصعب وبات هناك فصل بين الجنسين وتوصيف لمهام المرأة. أطّروا المرأة، فجعلوها إمّا أمًّا لشهيد أو أختاً لشهيد أو زوجة لشهيد»، تقول فياض.

مع الوقت صار الحجاب أكثر انتشاراً، بل وتغيّر شكله

(١٠) حسين مروة: هو مفكّر وفيلسوف وباحث، كان عضواً في اللّجنة المركزية للحزب الشيوعي اللبناني، اغتيل في منزله في بيروت في ١٧ شباط ١٩٨٧.

(١١) حسن حمدان: المعروف بمهدي عامل كان كاتباً وأستاذاً جامعياً وعضواً في اللجنة المركزية للحزب الشيوعي. اغتيل في ١٨ أيار ١٩٨٧ في أحد شوارع بيروت خلال توجّهه إلى الجامعة اللبنانية التي كان يدرّس فيها.

نساء من مدينة النبطية، مشاركة رجالها التظاهر من اجل القضايا الوطنية والمطلبية عام ١٩٧٢، من مجموعة علي مزرعاني

ليصبح أكثر صرامة، وراحت تنتشر العباءة السوداء التي توضع على الرأس. تقول بادية فحص إن الحجاب لم يكن منتشراً بقدر ما هو الآن وأنّه كان مختلفاً عمّا هو عليه اليوم. حيث استبدل «الحجاب العاملي»[١٢] بالـ«عباءة الزينبية».

تروي فحص أن جدّتها كانت ترتدي إيشارباً عاديًّا، تربطه على رأسها ويظهر شعرها أو رقبتها. وتضيف: إن الجدة كانت ترفع أكمام كنزتها عندما كانت تعمل في الحقل. وكانت النسوة ترتدين أي نوع أو لون من الكنزات، لا اللباس الفضفاض أو الطويل، وهو ما توصفه فحص باللباس العاملي أو حجاب نساء الجنوب والذي يكاد يختفي. هذا اللّباس كان ما يزال متواجداً في الشّريط الحدودي عند التّحرير في العام ٢٠٠٠، لأنه لم تكن هناك سيطرة للحزب، بحسب فحص. وكما في الجنوب كذلك في البقاع والضاحية الجنوبية لبيروت وغيرها من المناطق، لم يكن الحجاب على حاله اليوم.

تتحدّث الكاتبة بالتفصيل عن المراحل التي مرّ بها حجاب النساء الشيعيّات قبل أن يصل إلى ما نراه اليوم، قائلة: إنه بدأ بالثّوب الشرعي الذي يُشبه «الكبوت» وله أزرار، ترتديه النساء فوق بنطال وكنّ يضعن حجاباً مع دبّوس. تقول إن الدبّوس لم يكن يوضع قبل إنشاء «حزب الله»، من بعده صارت النساء يضعنه لتغطية الرّقبة والذقن. «قبل لم تكن النساء تغطّين الذقن أو الرقبة كان الإيشارب يُربط وكان حجمه أصغر. عندما بدأ حجاب الحزب بالظهور، صار الإيشارب أكبر وصار له دبوس ليغطّي الذّقن وارتدت النساء اللباس الشرعي. بعد مدة كبُر حجم الإيشارب ليغطي الأكتاف انطلاقاً من الآية ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾ فسّرت الجّيوب على أنّها طيّات الجسم أي المنحنيات، واعتبر الكتف منحنى فصرن تغطّين أكتافهنّ. من ثمّ بدأت العباءة بالظهور ومرّت بعدة أطوار.

في البداية ارتدت النسوة الملتزمات الشّادور الإيراني الذي ليس له من أكمام، ويوضع على الرّأس وتمسكه المرأة بيديها. لكنّ الشادور لم يكن عمليًّا، إذ قد يُظهر ما يُرتدى تحته عند استخدام اليدين، وهو ما اعتبره الشرع مُلفتاً للنّظر. من ثمّ اختُرِعت العباءة الزينبية، وهي مزيج من الشادور الإيراني والعباءة النجَفيّة. فالعباءة النجَفيّة لها يدان ويبلغ عرضها حوالى ٨ أمتار ما يجعلها ثقيلة جداً. أمّا الشادور فعرضُه أقلّ لكنه من دون أكمام. مُزِج عرض الشادور بأكمام العباءة النجَفيّة فكانت العباءة الزينبيّة التي خضعت لتعديلات، فصار لها كمّين وعرض صغير، دُرزت من الأمام وتغطّي الإبهام كي لا تخرج اليد، ولها ربطة تثبّتها على الرّأس، مرصوصة على الجّسم وليس فيها ما يُعتبر خطأ شرعياً. يُلبس تحتها حجاب أسود وأكمام وجوارب سوداء مع حذاء لا يُحدث أصواتاً».

تضيف فحص: «في الثمانينات شاعَ أن الحزب كان يدفع مبلغاً للنساء اللواتي يضعن دبّوساً وآخر مضاعفاً للّواتي يرتدين العباءة، وذلك بعد منتصف الثمانينات، أي بعد انسحاب إسرائيل من صيدا والنبطية، حيث تمدَّد «حزب الله» في المجتمع الشّيعي، وبدأ التأثير عبر الهيمنة على المظاهر الاجتماعيّة من خلال النساء. إذ عمل الحزب على القضاء على الحجاب العاملي والألوان، وطغى اللّون الأسود على المناديل الملوّنة والمنديل الأبيض الشفّاف التي كانت النّساء ترتدينها. فالحجاب يحدّد هويّة أيّ مجتمع. والأسود كان لوناً مكروهاً فبات هو اللون الغالب، إذ دائمًا ما يدلّ الأسود على الإسلام السياسي».

في هذا الإطار تروي إحدى النّساء أنّها تتعرّض اليوم للكثير من الضغوط من ذويها المنتمين لـ«حزب الله» كي تُعيد ارتداء الحجاب؛ وتقول إنّ أهلها يرفضون التواصل معها أو استقبالها بحال زارت لبنان بعد أن خلعت حجابها. وتخشى من كشف اسمها لما قد يسبّبه ذلك من ردود فعل.

(١٢) الحجاب العاملي: نسبة لجبل عامل وهي المنطقة التي يُطلق عليها اليوم اسم جنوب لبنان.

تغيير العادات الاجتماعية

بالإضافة إلى اللّباس عمل «حزب الله» على تغيير العادات والتقاليد الاجتماعية التي كانت سائدة في المناطق التي انتشر فيها. قبله كانت الأعراس مختلطة، لم يكن فيها فصل بين النساء والرجال. كان الجنسين يرقصان سويًّا. تروي بادية فحص أنهما كانا يدبكان دبكة معروفة باسم «فرخة وديك» حيث يصطفّ الراقصون بترتيب إمرأة رجل، إمرأة رجل. «كانت تتشابك الأيادي ويرقص النساء والرجال في ساحة الضيعة. اختفت الدبكة بسبب الحرمة الشرعية، لأن فيها رقص وموسيقى وتلامُس جسدي. اختفت من الأعراس وصار هناك أعراساً مقسومة، قسم للرجال وآخر للنساء، واستُبدلت الموسيقى بالموالد غير المختلطة»، تقول فحص.

تحكي الكاتبة أنه في تلك الفترة تزوّجت ابنة خالها في منطقة النبطية الفوقا. أقيم العرس في الحديقة أمام منزلهم. «رمى علينا عناصر في «حزب الله» قنابل صوتية لأنّنا أقمنا عرساً وكنّا نغنّي. وفي مرة أخرى زارتنا قريبة غير محجبة رموها بالطماطم».

في البقاع حيث كان الوضع أكثر تشدّداً من الجنوب، نُقلت روايات عن قيام عناصر من «حزب الله» برمي نساء غير محجبات بماء النار خلال الثمانينات لترهيب النساء وإجبارهنّ على ارتداء الحجاب. هذه الرواية المتناقلة يرمي مسؤوليتها أفراد في الحزب على شخص الأمين العام الأول لـ «حزب الله» صبحي طفيلي، والذي رأس الحزب بين العامين ١٩٨٩ و١٩٩١.

إذاً، عبر الإغراء بالمال والترهيب جرى الضغط على النّساء لتغيير نمط لباسهم وعَيشهم، وفق ما تؤكّده الأحداث والشّهادات الواردة في هذا البحث.

وبالحديث عن العادات الاجتماعية تلفت فحص إلى أن «حزب الله» قام حتى بتغيير الخطاب اليومي والعبارات اليومية. وتقول «أدخل حزب الله مفاهيم جديدة بتقبّل الأمور والحديث عنها وتغيّر الخطاب اليومي. مثلاً عند الوفاة كان الناس يعتمدون عبارات للمواساة مثل "انشالله بتسلم" استبدلت هذه العبارة بـ "عظم الله أجرَكم". كذلك كانوا يقولون خلال القيام بجهد ما "يا الله يا رب يا أبا الحسن يا علي" استبدلت بـ"يا زهراء يا مهدي"».

العلاقة بين الرجل والمرأة

كانت هناك حرية في العلاقات بين الجنسين. اختلفت طبيعة العلاقات بين الجنسين لكنها لم تُصبح ملتزمة بالمعنى الديني وفق فياض. فسقوط الكثير من الشهداء دفع للتسامح أكثر مع «زواج المتعة»[١٣] وهو ما لا يمكن لمجتمع أن يضبطه، وصار هناك تفلّتًا في هذا المجال، وفق الباحثة. وتشير إلى أنّها عندما كانت تدرّس في قسم علم النّفس في الجامعة اللبنانية شكَت إليها العديد من الطالبات تعرّضهنّ لتحرّشات جنسية، من بين المعتدين مشايخ يستغلون رغبة النساء بالطلاق ويدعونهنّ لعقد متعة.

في شهادتها تقول فحص إنه «قبل «حزب الله» كانت العلاقات الزوجيّة مختلفة عمّا هي عليه الحال اليوم حيث دخلت عليها الأيديولوجيا. وتشرح أن الزواج من امرأة ثانية لم يكن بالسهولة التي بات عليها اليوم، فعادة ما كان يلتزم الرجل بزواج واحد، وكان يمكن لزوجته منعه من الزواج بأخرى. وهو ما ترى بأنه تغيّر مع سيطرة «حزب الله» «بسبب كَثرة نساء الشهداء، صار الزّواج الثّاني مقدّراً أكثر من قبل ودرج تعدُّد الزوجات والزواج من زوجة شهيد».

كذلك صارت من ضمن واجبات الزّوجة حثّ زوجها على الجّهاد، وتقديمها التّضحيات اللّازمة في سبيل ذلك على حساب حقوقها. وبات على زوجة الجّريح كما زوجة الضحيّة أن تظهر بمظهر المتصبّرة السعيدة بما قدّمت رغم الآلام والخسارات. وهو ما جسّدته إحدى السيّدات التي أصيب زوجها بما عُرف بـ«تفجيرات البيجرز» وصار يُطلق عليه لقب «جريح بيجر» حيث أقدمت إسرائيل في ١٧ أيلول ٢٠٢٤ على تفجير أجهزة اتصال يستخدمها عناصر «حزب الله» وهي بحوزة آلاف العناصر، ما أدّى إلى إصابة المئات منهم، خصوصاً في العيون والأيدي والخاصرة، ففقد المئات منهم بصرهم، بشكل كلّي أو جزئي، وأجزاء من أيديهم وأصابع أيديهم.

خلال المقابلة التي أجرَتها مع قناة «أم تي في»،[١٤] من أمام إحدى المستشفيات، بعد وقت قصير من نقل زوجها

(١٣) زواج المتعة: هو زواج مؤقت ويتمّ بعقد بين الطّرفين يحدّد المدّة الزمنيّة للزّواج، ساعات أو أيام أو شهور أو سنوات. وعند انتهاء مدّة العقد ينتهي الزّواج تلقائيًّا من دون الحاجة إلى الطلاق.

(١٤) زوجة أحد المصابين بتفجيرات «البيجر» لـ«أم.تي.في»: «اللي بدو ياه السيد بدنا نعملو»، موقع الأم تي في، ١٩ أيلول ٢٠٢٤.

المُصاب إليها، تحدّثت إحدى السيّدات وهي تبتسم وتضحك قائلة: «كلّنا فدا السيّد بيتنا وولادنا وأخواتنا كل شي فدا السيد». وأثناء حديثها عن لحظة إصابة زوجها قالت «قدّامنا (أي شاهدته) وقلنا الحمد لله أوّل شي ع كل شي». تسألها المراسلة: كيف تلقّفتي الخبر؟ تجيب: «أنا جبتو لزوجي كان بعدو تحت البيت» في إشارة إلى قوّتها. وتضحك السيّدة عندما تسألها المراسلة عن «سرّ هدوء أعصابها».

كذلك نُشرَت في الفترة الأخيرة العديد من المقاطع المصوّرة لبعض «جرحى البيجر» وهم يعقدون قُرانهم. وأُرفقت بمديح الشّريكة الصابرة. وقد كرّم برنامج «محفل» الإيراني أحد هؤلاء الأزواج.[١٥]

هذين المثلَين لم يوضعا من قِبل الملتزمين مع «حزب الله» في إطار الحب كشعور عاطفي ولا رغبة المرأة بالاستمرار مع مَن تحبّ، وإنما وضعتها العديد من تعليقات هؤلاء في إطار الإيمان والجّهاد والتمثّل بالسيّدة زينب. وكأنّه الدّور المطلوب من النّساء والذي جرى التّرويج له كنموذج.

أسلمة الفن وتطويع مراسم عاشوراء

قبل سيطرة «حزب الله» كانت النسوة في مختلف المناطق ذات الأغلبية الشيعية، تتليْن الفراقيات والعتابا ويستمعن إلى الأغاني. مع سيطرة «حزب الله» صار الفن إسلاميًّا، وانتشرت الندْبيّات والأناشيد وحُرّمت الأغاني، وهو ما تؤكّده فحص.

ولم يقتصر ذلك على القرى بل انتقل إلى المدارس والجامعات. وفُرض منع الأغاني حتى خلال أنشطة جامعية ينظّمها طلاب غير منتمين لـ«حزب الله» في كليات في المناطق التي يُهيمن عليها الحزب. برز الأمر بقوة في العام ٢٠١٦ حين منع «حزب الله» مجموعة من الطلاب من تشغيل أغاني فيروز في نشاط لتكريم روح طالب قضى في حادث سير. وتبيّن هذه الحادثة التي وقعت في مكان عام ضد طلاب غير ملتزمين حجم الضغط والمنع الذي يتعرض له الأفراد في نطاق أضيق. ولم تكن

زوجة أحد مصابي البايجر: «اللي بدو ياه السيد بدنا نعملو»

هذه الحادثة يتيمة، إذ يفرض «حزب الله» دوماً رقابة على أنشطة الطلاب داخل الكليات التي يُسيطر عليها ويمنع تلك التي لا تحظى بموافقته.

بالإضافة إلى الفن، أدخل «حزب الله» تغييرات في إحياء مراسم عاشوراء. من الأمثلة على ذلك أنه وحتى العام ١٩٩١ كانت السيدة حسيبة هاشم هي التي تقف على المنبر الحسيني في النبطية وتقرأ مصرع الحسين في اليوم العاشر، وتتلو العتابة والمواويل. وللحاجة حسيبة مقاطع مصوَّرة وثّقتها عدسة المخرج مارون بغدادي في وثائقي «كلنا للوطن» عام ١٩٧٨، تظهر فيها القارئة بمنديل أبيض شفّاف يُظهر رقبتها وجزءًا من شعرها.[١٦] كما ظهرت في فيلم «كفر قاسم»[١٧] وهي تتلو مواويل حزينة، للمخرج برهان علويّة عام ١٩٧٥.

«لم يكن صوت المرأة عَورة، قبل أن يتحوّل المجلس العاشورائي لخطاب سياسي بعيد عن العاطفة والإنسانية وثورة الإمام الحسين كما وصلت إلينا»، تقول فحص. وتعتبر الكاتبة أن «عاشوراء سُرقت من التراث العاملي بطريقة فيها الكثير من اللصوصية. وأنه تمَّ تحريفها وخاصة مجالس النساء التي كانت ألطف من مجالس الرجال، والتي كان فيها نوع من القوة والاستعراض. عند النساء كان هناك عاطفة شفيفة ورهيفة جداً وكانت الفُراقيات والعتابا من أجمل ما يمكن سماعه في الحزن ورثاء الأموات. وأحياناً لا يُذكر فيها الحسين وإنّما تدلّ عليه الكلمات والتي يمكن أن تدلّ أيضاً على غيره».

في حديثها عن تأطير المرأة واستخدام الدِّين، تقول منى

(١٥) مشاركة مؤثرة لزوجين لبنانيين، حيث يحمل الزوج وهو جريح بايجر، آثار جراح تُحاكي تضحية أبي الفضل العباس(ع)، حساب السفارة الإيرانية على موقع اكس، ٦ آذار ٢٠٢٥.

(١٦) فيلم «كلّنا للوطن» للمخرج مارون بغدادي العام ١٩٧٨.

(١٧) فيلم «كفر قاسم» للمخرج برهان علويّة ١٩٧٥.

فياض إن «الحزب» حول المرأة إلى ظاهرة وظيفتها أن تكون مع الجماعة وألّا يكون لديها شخصية خاصة. وإنه عليها أن تشارك في المناسبات الدينية والأعياد. وتضيف: «حوّلوا التشيُّع إلى مؤسسة وظيفتها بناء عادات وثقافات جديدة وأن تُدخلها إلى رؤوس الناس وتؤطِّر حياتهم حولها. فصار هناك الكثير من مناسبات الاستشهاد. كذلك نبشوا في التاريخ ووجدوا روايات عدّة فصار هناك الكثير من السيدات على غرار السيدة زينب والنموذجيات بالنسبة إليهن»، تقول فياض. وتشير إلى «أنّ ذلك حدَّ من تفكير المرأة».

صورة ودَور زوجة «الشهيد»

بعد فقدان الزوج المقاتل بات على المرأة أن تظلَّ تحت وصايته، إذ عليها دوماً أن تتماهى مع صورة «زوجة الشهيد» التي رسمها لها «حزب الله».

ولعل أبرز من عبّرت عن الضغط الذي تتعرّض له النساء للالتزام بالصورة النمَطية التي تُراد لهن كزوجات للشهداء كانت الإعلامية زينب برجاوي، أرملة الأسير السابق سمير القنطار، والذي تولّى مسؤولية في «حزب الله» بعد تحريره من أحد السجون الإسرائيلية. قُتل القنطار في جرمانا، قرب العاصمة السورية دمشق، في نهاية عام ٢٠١٥. في مقابلة متلفزة مع الإعلامية رابعة الزيّات تحدَّثت برجاوي عن الضغوطات التي تتعرَّض له كونها لا تمثِّل الصورة النمَطية لزوجة الشهيد. لا ترتدي برجاوي العباءة الزينبية وتتبرّج وتهتمّ بشكلها الخارجي، وتُظهر حبّها للأزياء.

خلال المقابلة أكّدت برجاوي أنها دفعت ثمن زواجها من القنطار من «أبناء جلدتها». تحدّثت عن أثمان لها علاقة بالحياة الشخصية وبحرّيتها. قالت: إن أكثر قسم تأذّى فيها «هو الجانب الشخصي لأن في مكان ما تنتمين إلى بيئة لا تمثّلين الصورة النمَطية لها وبالتالي تُهتَكين». وأضافت أنه يقال عنها «عايشة حياتها شو عبالا... الحُكم عالشكل، قبل كانوا ينتقدونني بأني لا أمثل صورة زوجة مسؤول في «حزب الله»، وبعد استشهاده قالوا بأني لا أمثِّل صورة زوجة الشهداء. هناك صورة نمَطية يجب الالتزام بها، عندما تكونين من خارج الصندوق يكون مغضوب عليك، تُشنُّ عليك حمَلات ويُحكى عنك من نفس البيئة»، تقول برجاوي. تسأل الزيّات ضيفتها بأنها مؤيِّدة لـ«حزب

نشاطات عاشورائية تقيمها الهيئات النسائية في حزب الله، مجلس عزاء في منطقة بيروت، موقع المنار

الله»، تجيب: «لا يهمهم الولاء، الشكليات عندهم أهمّ من المضمون». تقول الزيات: «عم تحكي بلسانهن»، تجيب برجاوي: «بتضلّي ما بتشبهيهن لآخر عمرك».

برزت الضغوطات التي تتعرّض لها برجاوي والتعليقات الذكورية خلال الحرب الإسرائيلية الأخيرة على غزة. نشرت قناة «الميادين» مقطعاً مصوَّراً قصيراً عبّرت فيه برجاوي عن دعمها للحوثيين في اليمن. لكنها تعرَضت إثره لموجة من التنمُّر والتعليقات الذكورية من جمهور القناة المنتمي بأغلبه لـ «حزب الله»، «ما حدا بالقناة حذف المقطع المصوَّر بعد نشره على منصّة "إكس"».

تجرّأت برجاوي، لكنّ نساء أخريات لا يتجرّأن على البَوح بالضغوطات التي يتعرّضن لها كأرمَلات عناصر في «حزب الله». وتشكّل حالة برجاوي مثالاً فاقعاً على تعاطي عناصر وجمهور الحزب مع النساء، زوجات قتلاه، وكيف يتصرّف مع تلك التي قد تخرج عن الصورة النمَطية، حيث تتعرّض لضغوطات نفسية كبيرة.

المشهد الأخير: الثكلى كنموذج

في الحرب الأخيرة برزت صورة الثُكالى. نُشرت مقاطع مصوّرة تُظهر نساء يفتخرن بمقتل أبنائهن في الحرب بل وحتى بفقدان أي أثر لهم، ورُحن يتفاخرن بأنهن واسَين أهل البيت. هذه المشاهد المصوّرة التي يتعمّد «حزب الله» نشرها تأتي نتيجة لكل ما ذُكر، ولها وظيفتها في المجتمع.

من النماذج إمرأة تخطب بالمعزّيات وتروي كيف تبلّغت

خبر خسارة ابنها واعتبرته مواساة لفاطمة الزهراء ابنة النبي محمد، وقالت إنها كانت تسأل عن جثة ابنها فقيل لها أنها من دون رأس، فقالت لا بأس لقد واسى الحسين، قيل لها إنها من دون يدين فقالت لا بأس واسى العباس... قيل لها: إنه فقيد الأثر فقالت لا بأس، وراحت تتفاخر بمواساة أهل البيت أجمعين.

إمرأة أخرى تقف بالقرب من جثمان ابنها، تخاطبه قائلة: «إنت شرّفتني بوسام الشّهادة يا ماما... لبّستني وسام الشّرف كل عمري احلم فيه... تقبّل مني يا حسين... ما قدمّتلك إلّا القليل، ما قدّمت قدّام السيّدة الزّهراء شي ولا قدّام السيّدة زينب...». وترفع الأمّ الثّكلى التي ترفض البكاء اصبعها وهي تنظُر إلى غيرها وتقول : «ما بنبكي نحنا إلّا عالإمام الحسين... خُذ حتى ترضى يا الله...». من ثمّ تتوجّه نحو جثمان ابنها: «قلتلّي دمّي مش أغلى من العباية...».

ولعلّ أبرز المشاهد التي شكّلت صدمة وأثارت انتقادات لاذعة، كانت مقابلة أجراها تلفزيون «المنار» مع الثّكلى والجريحة هدى حجازي، والتي فقَدت بناتها الثلاث بغارة إسرائيلية استهدفت سيارتهنّ في بلدة عيناتا (المقابلة أُجريت مع حجازي وهي مصابة ومن على فراش المستشفى).[١٨] تظهر حجازي مبتسمة طوال الوقت، رغم مقتل بناتها الثلاث احتراقًا داخل السيارة ووفاتهن مع جدّتهن. في المقابلة تعبِّر حجازي عن رضاها وخوفها من أن يحزن أمين عام «حزب الله» في حينها حسن نصرالله. المقابلة استدرجت ردود فعل قاسية تجاه الوالدة، ووُوجهت إليها اتهامات ونعوت قاسية، ولا تتفهّم أيّ من العوامل التي تدفع بأمٍّ للتعبير بهذه الطريقة عند خسارة أطفالها، ولا بالدور المطلوب منها في لحظة كهذه.

خلال مقابلتها من على سرير المستشفى مع مراسل قناة «المنار» ولدى تحدّثها عن مقتل بناتها الثلاث، قالت حجازي وهي مبتسمة «في شي انتشلن حسّيت، ما حسّيتن احترقوا... لأ في شي أخدن مني ع عالم تاني ع مكان تاني في إيدين طاهرة بيضا أخدتن... في السيدة زهراء لفّتن بعبايتا... بعيش بلا ولادي بعيش بلا إخواتي بعيش بلا إمي بعيش بلا كل شي بس يكون معي كرامتي يكون معي حبّي لأهل بيتي لنهجي».

(١٨) مقابلة مع الجريحة هدى حجازي، تلفزيون «المنار»

مقابلة الجريحة هدى حجازي، قناة المنار.

في مقابل هذين المشهَدين، نُشر مشهد لإمرأة تبكي فقْد ابنها فتُوعظها إمرأة أخرى بأن عليها ألّا تبكي وأن لا تُظهر ضعفها.

تعتبر فياض هذه الفيديوهات جزء من الآلة الدعائية الضخمة لدى «حزب الله»، وترى أنها مدروسة ولها وظيفة وهي إقناع النساء «هيك لازم تكونوا».

من جهتها تلفت فحص إلى أعمار الأمهات. تقول إنّ اللواتي عادة ما يُقلن بعد خسارة أبنائهن «فدا رجل السيّد... والله ما زعلت... عيني ما دمّعت عليك عيني بس بكت عالسيّد»، أعمارهنّ لا تتجاوز الخمسين سنة، أما الأمهات اللواتي كنّ يبحثن عن أولادهن تحت الأنقاض بينما يتلين ردّيات عاملية كنّ في السبعينات من العمر وما فوق. «هؤلاء اللواتي لم تتمّ أدلجتهنّ واللواتي وجدن أن الوضع العام قد سيطر عليهنّ ووضعهن في قلب الموجة، لكنهن لسن بنات هذه الموجة. النساء الأصغر منهنّ هنّ بنات هذه الموجة، لذلك هنّ متأثّرات بها أكثر ويحاربن بهذه الطريقة عبر إثبات مفاهيم «حزب الله» وقيَمه، ويعتبرن أنهنّ مسؤولات عن إثباتها، هي وظيفتهنّ وهو تكليفهنّ في الحزب. عدم البكاء هو تكليف وإن بكَت الأمّ تكون قد خالفت التكليف كونها جزء من هذا الحزب. أما الأمهات الأكبر سنًّا وجَدن أنفسهن منجرِفات في هذه الموجة ومشَين خلف أبنائهن. من تقول قدّمت ابني يعني أنّها سبقته إلى «حزب الله» وشجّعته».

لكنّ هذه المشاهد لا تعكس الصورة الكاملة، فأمهات «الشهداء» عادة ما يتعرّضن لضغط مهول كي يُظهرن بصورة الأم المفتخرة بخسارة ابنها. فعادة ما تتولّى الهيئات النسائية في «حزب الله» مهمّة إبلاغ الأمّهات بخسارة

أبنائهنّ ويُعددنهنّ لاستقبال المعزّيات ولحظة التشييع ويُمليْن عليهنّ كيف يجب أن يعبّرن ويتصرّفن.

تروي فحص قصة كانت شاهدة عليها، وكيف يعمد «حزب الله» إلى إبلاغ الهيئات النّسائية قبل الوالدة بخسارة ابنها، فتشكّلن وفداً منهنّ مهمّته إبلاغها بالخبر. تقول: إنّه لدى معرفة الوالدة بمقتل ابنها تبدأ بالصّراخ والبكاء، لكنّ عناصر الهيئات النّسائية ينبّهنها من أنه يُمنع عليها البكاء أمام أحد وإظهار الحزن والانكسار، إنما عليها رفع رأسها والقول إنّ ابنها شهيد وأنّها قدّمته فداء للمقاومة. تضيف فحص: «ينبّهونها حرفيًّا بذلك، وإن كانت عاجزة عن التحمّل يعطيْنها مهدّئات، ويحرصن على إبقاء إحداهنّ برفقتها طوال الوقت للضّغط عليها كي لا تخطئ. صديقتي خسِرت إبنها الوحيد في سوريا. في اليوم الأوّل لوصول جثمانه من سوريا تفجّعت وضربت نفسها. زارها وفد من الهيئات النّسائية فتحوّلت إلى مومياء، لا كلمة ولا دمعة. هم يأخذون الأمهات بالعاطفة وبالابتزاز، كما أنّ بعضهنّ فقيرات يخَفن من حرمانهنّ من المخصّصات في حال لم يلتزمن بالتعليمات».

نساء تبكي في تشييع نصر الله، موقع المنار

بالنّسبة إلى فحص لم تعُد المسألة جعل الأمّهات قدوة، صار أسلوب حياة ونمط. فالقدوة هي السيّدة زينب وأمّ البنين التي قدّمت أربعة أبناء. وعلى كلّ سيّدة أن تقوم بالأمر نفسه.

وهو ما يتطابق مع كلام نعيم قاسم عن المرأة في كربلاء وتحديداً موقف السيّدة زينب. يقول قاسم «إن البكاء والاستسلام كان ليخسّر لذلك وقفت موقفاً شديداً»[١٩]

شهادة أخرى تنقلها الباحثة عزّة شرارة بيضون عن إحدى نسيباتها، تفيد بأنّها، حين كانت تعزّي أمًّا لشهيد من «حزب الله» سقط في سوريا، دخل رجال وطلبوا منها ألّا تحزن وألا تبكي «لأن ابنها شهيد، البُكاء عليه حرام». وتقول عزة شرارة بيضون: «قريبتي هذه رأت في قول هؤلاء الرجال تهديداً...».

فاطمة (اسم مستعار)، ابنه أسرة ينتمي أفرادها لـ«حزب الله». لدى سؤالها، في معرض هذا البحث، تقول إنّ ابن خالها قضى مع «حزب الله» في سوريا وهو في السابعة عشرة من عمره. وتضيف: والدته لم تكن

امرأة تبكي زوجها

ملتزمة دينياً. بعد مقتل ابنها زارها وفد من الهيئات النسائية لتهدئتها. «أخبرنها أن ابنها ذاهب إلى الجنّة وسيكافأ بالحوريات، وحاولن تهدئتها ومنعها من الصّراخ. في البداية لم تستوعب ما حصل. بعد مدّة صارت الهيئات تصطحبنها معهنّ لتصبح بدورها واعظة للأمّهات اللواتي يُقتل أبنائهنّ. لم تكن ابنتها ترتدي الحجاب، جعلوها ترتديه لأنّها صارت أخت شهيد»، وفق فاطمة.

قبل «حزب الله» قدّم الحزب الشيوعي و«حركة أمل» الشهداء. عن ردّة فعل الأمهات في حينها تتذكّر بادية

(١٩) انظر/ي: مقابلة لنعيم قاسم نشرها موقع «شيعة فويس» https:// ٨MiVN-shiavoice.com/play

فحص أنّ الجنازات كان فيها تفجّع. وتروي أن إحدى العائلات خسرت شابّين من الحركة الوطنية، «يومها جلبت النساء فحماً لتشحير وجوههنّ وأخريات جلبن زر النّيل الأزرق، وكنّ يقلن "يا مشحّرة ويا منيّلة"». تضيف «كانوا ينتّفو حالن كرمال الشهداء».

إذاً عمل «حزب الله» لعقود ليصل إلى هذا المشهد الأخير، إلى صورة الأمّ المتفاخرة والسعيدة بمقتل ابنها والتي تحضّ بقيّة النساء على التمثّل بها. ففي بداياته لم يكن الأهل يَسعدون بمقتل أبنائهم مع «حزب الله».

تقول عزة شرارة بيضون أنّ ابن عمها «استشهد سنة ١٩٨٤، عند الشريط الحدودي وهو يحضّر عبوة ناسفة يفجّرها في عملاء لحد وكان لا يزال في بداية عشريناته. عُدّ شهيداً من الحزب، لكنني لم أسمع أن أمه عدّته سعيداً، وهي لم تكن سعيدة، بل بكته لسنوات طويلة».

وفي شهادة سابقة لإحدى النّساء التي ينتمي والدها اليوم إلى «حزب الله»، روَت إنّ جدّها وجدّتها انفصلا بعد أن رفض الجدّ حضور تشييع ابنه الذي قُتل مع «حزب الله».

الخلاصة

المشهد الأخير الماثل أمام الأعين اليوم لا يمكن اعتباره خياراً شخصياً أو صورة مكتملة لحقيقة مشاعر النّساء. وإنما هو نتيجة لعقود من عمل منظومة تفرض رقابتها وسيطرتها على أفكارهن أجسادهنّ وتفاصيل لبسهنّ ونمط عيْشهن.

تُظلم الكثير من النساء الشيعيّات كثيراً من قِبَل مَن ينظر إليهنّ من بُعد من دون أن يلتفت لكلّ ما جرى ويجري. إذ يلتفت المراقب لما يُنشر في إطار بروباغندا «حزب الله»، وكثيراً ما يقع ضحيّتها، من دون أن ينتبه إلى حقيقة ما تعيشه النّساء في مجتمع هيمَن عليه «حزب الله» والذي عمَل لعقود على أدلَجته. فتارة تتُّهم النّساء بالجهل وتارة أخرى باسترخاص أرواح أبنائهن، ويتعرّضن للسخرية ولأحكام قاسية، بينما هنّ في الحقيقة ضحايا لمنظومة أبويّة بذلت جهداً كبيراً لأدْلَجتهن والهيمنة على أجسادهن. منظومة باتت تملك سلطة على كافة مفاصل حياتهنّ وقادرة على معاقبتهنّ إن أخللن بما تفرضه عليهنّ من دَور وواجبات. وهو ما من الضروري الالتفات إليه لتشخيص الواقع وفهمه.